والسلام « رأيت ربى فى أحسن صورة » وقوله عليه الصلاة والسلام « إن الجبار يضع قدمه فى النار » وقوله عليه الصلاة والسلام « ينزل ربكم إلى سماء الدنيا » إلى غير ذلك من الأحاديث ، فالطريق الأسلم الذى درج عليه السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم أن نقول فى هذه النصوص : إن لها معانى غير ما يتبادر منها وهى صحيحة موافقة للأدلة العقلية والنقلية الدالة على وجوب مخالفته تعالى للحوادث ، وإنا نؤمن بها ، ونفوض معرفة حقيقتها إلى علم الله تعالى، وهذا القدر يكفى فى صحة الإيمان ؛ فاستواؤه تعالى على العرش هو صفة من صفاته تعالى اللائقة به ليس كاستواء الحادث المستلزم للجسمية والجهة، والنزول إلى سماء الدنيا صفة من صفاته تعالى اللائقة به ليس كنزول الحادث المستلزم الانتقال من حيز إلى حيز ، والمجىء كذلك . ونقول أيضا : إن له تعالى يدا ويمينا وقدما ليست كأعضائنا، بل هى على ما تليق به سبحانه لاتستلزم التجزؤ والمقدار ، وهو سبحانه أعلم بحقيقة تلك المعانى التى أرادها من تلك النصوص ، وهكذا القول فى كل نص متشابه .

وإذا تصدينا لرد مذهب المبتدع المدعى مماثلته تعالى للحوادث تمسكا بظواهر هذه النصوص ، أو أردنا تثبيت عقيدة الضعفاء فى الدين ، فنقول على طريق التأويل : إن تلك النصوص تحتمل معانى غير ما يتبادر منها لا تستلزم مماثلته تعالى للحوادث وبالحمل عليها توافق الأدلة العقلية والنقلية الدالة على تنزيهه تعالى عن المماثلة ونأمن بذلك من الخطأ فى الاعتقاد الذى ربما يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى . وبيان ذلك أنه يحتمل أن المراد من الاستواء على العرش هو الاستيلاء والقهر كما قال الشاعر العربى :

* قد استوى بشر على العراق *

أى استولى ، والمراد بذلك بيان عظمته تعالى ونفوذ حكمه على كل شىء من هذا العالم ، ويحتمل أن المراد بالنزول إلى سماء الدنيا هو الإقبال

الحصون الحميدة

للمحافظة على العقائد الاسلامية

تأليف

حسين بن محمد الجسر الطرابلسى

١٢٦١هـ = ١٣٢٧هـ

وقد ورد فى نصوص الشريعة الغراء نسبة أشياء لله تعالى توهم ظواهرها مماثلته ومشابهته للحوادث وسميت تلك النصوص بالمتشابهات والحال أن الدليل العقلى قد قام على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته لها . وكذلك الدليل النقلى ورد بذلك . قال الله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) فنعتقد فى تلك النصوص المتشابهات أن لها معانى صحيحة تليق به تعالى خالية عن استلزام مماثلته تعالى للحوادث وليست هى المعانى المتبادرة من ظواهر تلك النصوص المستلزمة للمماثلة . ونفوّض علم حقيقة تلك المعانى الصحيحة إليه سبحانه فنكون بذلك الاعتقاد منزهين له تعالى عن مماثلة الحوادث ومفوضين له فى علم ما أراد من تلك النصوص . وهكذا كان اعتقاد السلف الصالح رضى الله عنهم ، لكن لما ظهر بعض الفرق المبتدعة وتمسكوا بظواهر تلك النصوص المتشابهات واعتقدوا المعانى المتبادرة منها المستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث ، وخيف على اعتقاد بعض الضعفاء فى الدين من سريان بدعتهم إليه تأول العلماء المتأخرون هذه النصوص المتشابهات تأويلات مناسبة موافقة للأدلة العقلية على ما ذكر فى كتب التفاسير وشروح الأحاديث . وهم فى تلك التأويلات عند التصدر لرد مذهب المبتدعة أو تثبيت عقيدة الضعفاء كأنهم يقولون ما دامت تلك النصوص المتشابهات محتملة لمعان صحيحة مناسبة موافقة للأدلة العقلية جارية على قواعد اللغة العربية فبالحمل عليها احتمالا يحصل التوفيق بينها وبين الأدلة الدالة على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته تعالى لها ونسلم من اعتقاد ما ربما يخرج به المرء عن الإيمان ، والعياذ بالله تعالى . وبيان الطريقتين فى ذلك أنه قد ورد قوله تعالى فى القرآن المجيد (الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (ويبقى وجه ربك) وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) وقوله تعالى (وجاء ربك) إلى غير ذلك من الآيات ، وورد فى الحديث الشريف قوله عليه الصلاة

تعالى بصفات أخرى كمالية : من أنه تعالى عدل حكيم صمد هاد خالق رزّاق قيوّم إلى أمثال ذلك مما طفحت به نصوص الشريعة المحمدية ، فيجب الإيمان بجميع ما ورد له تعالى من الصفات العلية فى نصوص الشريعة الأحمدية ؛ لأن المخبر بها هو رسول الله صادق مجزوم بصدقه بما قام من دلائل رسالته من عند الله تعالى .

ثم كما جاءت نصوص الشريعة بإثبات الصفات له تعالى كذلك جاءت بإثبات أسمائه سبحانه التى سمى بها نفسه ومنها لفظ (الله) الذى هو الاسم الخاص به تعالى وهذا اللفظ الكريم ، كما أن اللغة العربية تطلقه على الإله سبحانه وتعالى قبل إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كذلك جاءت الشريعة بإطلاقه عليه تعالى. فتسميته تعالى به تسمية شرعية نعتمد بها على نص الشريعة وهكذا بقية أسمائه تبارك وتعالى . فتسميته بكل منها شرعية ولا يجوز تسميته باسم لم يرد به الشرع الشريف ، وهذا معنى قول علماء الإسلام : إن أسماء الله تعالى توقيفية ، أى أن إطلاق كل اسم منها عليه بتوقيف الشرع الشريف ولا يجوز أطلاق اسم عليه تعالى بدون توقيفه .

الفصل الخامس

فى بيان ما ورد فى نصوص الشريعة نسبته إلى الله تعالى مما يوهم التشبيه ، والمماثلة للحوادث ، وبيان كيفية اعتقاد أهل السنة والجماعة فى ذلك ، وطريق تأويله عند الحاجة إليه

اعلم أنه كما ورد فى الشريعة المحمدية ما يفيد وصف الله تعالى بصفات كمالية : منها ما قامت الدلائل العقلية على ثبوته له تعالى ، ومنها ما ليس كذلك لكن لما أخبر به الرسول المبرهن على صدقه بالمعجزات ولا مانع عقلا يمنع من ثبوته له تعالى آمنا وصدقنا به وذلك مثل كونه تعالى قابل التو بة من عباده وأنه يثيب الطائع ويعذب العاصى كذلك ،

فاعْلَمْ أنَّهُ لاإلَهَ إلاَّ اللهُ

[قرآن كريم]

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ؛

أما بعد : فيقول الفقير الحقير ، الراجى من الله غفران الوزر ، عبده (حسين بن محمد الجسر الطرابلسى) عفا الله عنه : إنه من المعلوم المسلم عند كلّ مطلع على تاريخ الأمة المحمدية ، أن إيمان أهل الإسلام بجميع ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام كان فى عصره (عصر السعادة) مستندا للقرآن الشريف ، وحديث الرسول المنيف ، مؤيدا بأدلة العقل السليم الناهج فى المنهج القويم ، خالصا من شوائب الشبه والأهواء ، سليما من غوائل الأغاليط واختلاف الآراء ، فلذلك كانت ثمراته يانعة ، وزواهره ساطعة ، فكنت ترى أفراد الأمة محافظين على إقامة العبادات ، وانتظام شأن المعاملات ، ممتثلين للأوامر ، منتهين عن المناكر ، متحلين بأخلاق الدين الحسنة ، وآدابه المستحسنة ، لأنه متى طاب الأصل طابت الفروع ، وعذوبة الماء تنشأ عن صفاء الينبوع .

وقد دام ذلك فى المسلمين ، وجماعة الموحدين ، إلى أن أمر أحد الخلفاء العباسيين بترجمة كتب الفلاسفة المتقدمين إلى اللغة العربية ، وانتشرت تلك التراجم بين الأمة الإسلامية ، ونشأ من الاطلاع عليها

شبه زعزعت إيمان ضعفاء المسلمين ، ومن ليس عندهم تمكن فى معرفة أصول دين سيد المرسلين . فانبرى عند ذلك علماء الأمة المحمدية وأئمتها الأعلام ، المتمسكون بما كان عليه المصطفى وأصحابه عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، يردّون القلوب الشوارد ، ويدفعون تلك الشبه بما يرغم أنف كل معاند ، حتى زأيت كتبهم مزدانة بالدلائل القطعية . على إثبات العقائد الدينية ، وصادعة بردود الشبه التى كانت على الضعفاء أعظم بلية ، فحفظ الله تعالى بصنيعهم إيمان الأمة من الغوائل ، وحصنه من صدمات الشبه بأقوى الدلائل .

وقد استمرّ الحال على هذا المنوال ، إلى أن ظهرت فى هذه العصور الأخيرة ، الفلسفة الحديثة ، التى خالف فيها أربابها طريقة أسلافهم الفلاسفة المتقدمين ، واعتمدوا فى ذلك أصولا فى الرياضيات والطبيعيات لم تكن تعرف قبل هذا الحين ، وانتشرت هذه الفلسفة بواسطة المطبوعات بين أهل الإسلام ، ونشأت عنها شبه لم تكن معهودة فى غابر الأعوام . وصار كل عاقل يخشى على إيمان الضعفاء من غوائل هذه الشبه الجديدة . فتجدد الاحتياج إلى استئناف الردود السديدة ، وتأليف كتب فى حفظ الإيمان مفيدة .

ولما منّ الله تعالى على أهل هذا العصر بخليفة رفعت لجلالته ألوية الشرف والفخر ، ونشرت لحضرته رايات العزّ والنصر ، وسار فى إصلاح الرعية سيرا عجيبا ، وسلك فى نجاح البرايا سلوكا غريبا ، وقام على أقدام الإقدام ، ونشر منشور فضله على عموم الأنام ، وصرف أوقاته لنفع الخاصّ والعامّ ، وبسط بساط المراحم لكافة تبعته ، وأفاض فيوض المكارم على جميع صنوف رعيته ، ألا وهو ثانى القمرين ، ومحيى سنة سيد الكونين ، ناصر الشريعة الغرّاء ، ورافع لواء المحجة البيضاء ، سلطان سلاطين العرب والعجم ، ومعيد ما اندرس من آثار

كالشريك له تعالى ، ويعلم الجائز وأنه جائز سواء كان موجودا أومعدوما سيوجد أولا يوجد ، فيعلمه سبحانه على ما هو عليه ولا يعزب عن علمه سبحانه شىء من كلّ أو جزئى فى الأرض أو فى السماء ، فيعلم عدد الرمال وقطرات الأمطار وورق الأشجار وذات الكائنات ولا نهاية لمعلوماته سبحانه .

وأما كلامه تعالى فيتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق دلالة ، فكلامه سبحانه الذى ليس بحرف ولا صوت يدل على كل واجب ومستحيل وجائز موجود أو معدوم بكل ما هو عليه ، ويفهم الله تعالى بكلامه كل واحد منها لمن أراد إفهامه من عباده كملائكته ورسله عليهم الصلاة والسلام .

الفصل الرابع

فى بيان أنه يجب أن نعتقد بجميع صفاته تعالى وأسمائه التى ورد الشرع بما يفيد ثبوتها له تعالى ، مع بيان أن أسماءه تعالى توقيفية .

اعلم أنه لما ثبت عند نا معشر المسلمين أن سيدنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم هو رسول الله تعالى بدليل ما ظهر على يديه من المعجزات الخارقة للعادة التى كان ظهورها على يديه تصديقا له من جانب الله تعالى بدعوى الرسالة ، وحيث ثبت أنه رسول الله يجب له الصدق فى جميع ما يخبر به ويستحيل عليه الكذب كما سيأتى برهان جميع ذلك فى الباب الثانى إن شاء الله تعالى وجب علينا وصح لنا تصديقه فى جميع ما جاء به فى نصوص شريعته من إثبات الصفات لله تعالى ، وقد جاء فى نصوص شريعته من القرآن الشريف وحديثه المنيف ما يفيد وصف الله تعالى بالصفات التى تقدم ذكرها مع إثباتها لله تعالى ، بالدليل العقلى واستحالة أضدادها وهى التى عليها مدار الألوهية وعظمة شأن الربوبية ، وجاء أيضا فى نصوص الشريعة ما يفيد وصف الله

بالمستحيلات كالشريك له تعالى ، والجمع بين النقيضين ككون زيد موجودا معدوما فى آن واحد، فلأن الواجب حاصل حتما ولا يمكن خروجه عن الوجود إلى العدم ، فلا تتعلق به الإرادة والقدرة لا إيجادا لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال ، ولا إعداما لا ستحالة عدمه وخروجه عن الوجود ، ولأن المستحيل معدوم حتما ولا يقبل الوجود فلا تتعلق به الإرادة والقدرة ؛ لا إعداما لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال ، ولا إيجادا لا ستحالة وجوده وخروجه عن العدم . وعلى تقرير هذا المقام لو سأل سائل وقال : هل يقدر الله تعالى على إعدام الواجب الفلانى أو على إيجاد المستحيل الفلانى كشريكه تعالى ؟ فالجواب المقترن بالأدب أن نقول : إن البرهان قد دل على أن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالواجبات ولا بالمستحيلات لا إيجادا ولا إعداما ، وما ذكرتَ أيها السائل فهو من الواجبات أو من المستحيلات وقدرة الله تعالى لا تتعلق بهما ، ولا نقول : إنه تعالى لا يقدر على ذلك لأن هذا من سوء الأدب فى جانب الحضرة الإلهية ويوهم العجز عليه تعالى وتقدس .

وأما السمع والبصر له تعالى فيتعلقان بجميع الموجودات سواء كانت واجبات أو جائزات تعلق انكشاف ، ولا يتعلقان بالمعدومات سواء كانت مستحيلات أو جائزات ؛ فيرى سبحانه وتعالى ذاته الكريمة وصفاته ويسمع كلامه؛ كما أنه يرى ويسمع كل مرئى ومسموع جائز من مخلوقاته ، فيرى الذرة فى الليلة الظلماء ويسمع صوت مشيها على الصخرة الصماء ، لأن سمعه وبصره تعالى ليس كسمع الحوادث وبصرهم الحادثين الناقصين المتوقف إدراكهما على شروط وأسباب عادية .

وأما علمه تعالى وكلامه سبحانه فيتعلقان بالواجبات والمستحيلات والجائزات الموجودات منها والمعدومات . أما علمه فيتعلق بهذه المذكورات تعلق انكشاف ، فيعلم الله تعالى بعلمه الواجب وأنه واجب وذلك كذاته المقدسة وصفاته، ويعلم بعلمه المستحيل وأنه مستحيل وذلك

سالف الأمم ، الخليفة الأعظم ، والخاقان الأفخم ، السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازى (عبد الحميد) خان ، ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان ، نصره الله تعالى وأدامه ، ورفع على ذروة الخافقين بالفتح المبين أعلامه ، وجه عنايته — حفظه الله تعالى — إلى أحوال العلوم والمعارف ، وألفت الطرف إلى شئون الفضائل والعوارف ، فرآها بلسان الحال تشكو لجلالته ، وتطالب إحياءها بلمحة من أنظار دولته ، فرثى لحالها ، وأصغى لمقالها ، وسمع دعواها ، ولبى شكواها ، فشيد لها المكاتب والمدارس ، وأحضر لها من الكتب والرسائل أنفس النفائس ، وساق إليها المعلمين من أقطار الأرض ، وأمر بإحياء دارسها ، وإطاعة أمره فرض وأىّ فرض ؟ فقرئ فيها من العلوم والفنون ما يسرّ القلب المحزون ، ولم تزل المعارف تنشر فى البلاد ، وتتضاعف ثمراتها وتزداد ، حتى استنقذت شبان الرعية من ظلمات الجهل ، ونوّرت أفكارهم بأنوار العرفان والفضل ، وقد علت بذلك همتهم ، وازدادت بحسن معارفهم قيمتهم .

إلا أن ما أحدثته الفلسفة الحديثة التى نقلت إلينا على متون المطبوعات من غوائل الشبهات ، قد يخشى منه ريغ عقائد شبان ضعفاء الأمة ، ووقوعهم فى الضلالات ، فكان المطابق لرضائه العالى ، والموافق لرأى جلالته السامى ، تأليف كتاب مختصر يشتمل على تقرير العقائد الإسلامية ببراهينها العقلية ، ويتكفل بدفع تلك الشبه التى حدثت من الفلسفة الجديدة وسواها من الأغاليط المضرّة بالعقيدة ، مع بيان ما يقضى بجلب قلوب شبان المسلمين لمحبة الدين المبين ، والتعشق لحضرة سيدنا محمد سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، عسى أن تعمّ قراءته فى جميع المكاتب السلطانية ، والمدارس الشاهانية ، محافظة على عقائد تلامذتها من أهل الملة الإسلامية ، والشريعة المحمدية ؛

فوفقت لهذه الخدمة الشريفة التى ينتج عنها ـ إن شاء الله تعالى ـ بأنظار خليفة رسول الله الخير العظيم لعموم الأمة الإسلامية ، وتكون حسنة من حسنات شوكته ـ حفظه الله ـ وغرّة من غرر عصره الحميدىّ السعيد ، المؤيد بتوفيق الله تعالى .

فجاء كتابا يسرّ قلوب المؤمنين ، ويقرّ أعين الموحدين ، مشتملا على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، كلّ باب منها يشتمل على فصول : تحتوى على ما تمسّ الحاجة إليه من مهمات الأصول ، وعلى خاتمة : تشتمل على بيان وجوب الخلافة فى الدين المحمدىّ المبين ، وما لها من حقوق الإطاعة على عموم المسلمين ، وهو حقيق بأن يسمى :

[الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية]

فنتوسل إلى الله تعالى بروحانية حبيبه الأعظم ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن يؤيد عرش الخلافة العظمى بطول عمر وحياة مولانا الخليفة الأعظم ، وبحفظ ذاته الكريمة ، ويؤيده بالنصر المكين ، والفتح المبين ، اللهمّ آمين .

سبع صفات : الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث و قيامه بنفسه والوحدانية والحياة ، ومعنى عدم تعلقها بشىء أنه لا يكون بها تخصيص الأشياء ولا إيجادها ولا كشفها ولا الدلالة عليها كما يكون للصفات الآتية . ومنها ماله تعلق بالأشياء وهى ست صفات له تعالى وهى : الإرادة والقدرة والسمع والبصر والعلم والكلام .

أما الإرادة والقدرة فيتعلقان بالجائزات فقط ولا يتعلقان بالواجبات والمستحيلات . فالإرادة تتعلق بالجائزات تعلق تخصيص . فيخصص الله تعالى بها فى الأزل الجائز ببعض ما يجوز عليه . مثلا يخصص الله تعالى فى الأزل زيدا بأنه يوجد أم لا ، وبأنه إذا وجد يكون على صفة كذا فى الزمن الفلانى والمكان الفلانى والجهة الفلانية من الأرض وهلم جرا . وبهذا التخصيص يجب أن يكون هذا الجائز على ما خصصه الله تعالى به بإرادته ويستحيل أن يكون بخلاف ذلك . لأنه لو كان بخلاف ما أراده الله تعالى فيه لزم أن يكون الله تعالى كارها مقهورا يحصل فى ملكه ما لايريده وهى حالة لايرضى بها المخلوق المملوك فما بالك بالخالق ملك الملوك سبحانه وتعالى ؛ والقدرة له تعالى تتعلق بالجائز تعلق تأثير بايجاده أو باعدامه على طبق ما تعلقت به الإرادة فى الأزل . مثلا إذا تعلقت إرادته تعالى فى الأزل بايجاد زيد على صفة كذا فى زمن كذا فى مكان كذا فإذا جاء الزمن الذى تعلقت إرادته تعالى بايجاد زيد فيه تعلقت قدرته تعالى بايجاده فيوجده سبحانه فيه بقدرته على الصفة التى خصصه بها فى المكان الذى خصصه له بارادته ، وكذلك إذا تعلقت إرادته تعالى بإعدام عمرو على وجه مخصوص تعلقت قدرته تعالى بإعدامه ، فيعدمه سبحانه بقدرته على طبق تعلق الإرادة بدون تخلف ، وإلا لزم تخلف إرادة الله تعالى وهو محال كما تقدم قريبا

وإنما لم تتعلق كل من إرادة الله تعالى وقدرته لا إيجادا ولا إعداما بالواجبات : كذاته تعالى وصفاته وملازمة الجرم للحيز ، ولا

لئن يكون له مرتبة الكمال فى صفاته التى ثبتت لدينا بالدليل العقلى وفى كل صفة كمالية تليق به تعالى وإلا كان دون مصنوعاته وذلك خلاف ما يصدّق به العقل . فنعتقد أنه سبحانه وتعالى سميع بصير متكلم . بل متصف بكل صفة كمال تليق بشأن الألوهية : ويستحيل عليه تعالى الصمم والعمى والبكم . وهو الذى أبدع السمع وأنار البصر وأطلق اللسان بالكلام ، كما يستحيل عليه تعالى أن يكون ناقصا فى صفة كمالية وقد أوجد فى مصنوعاته كل كمال .

هذا : ويسوغ لنا معشر المسلمين أن نكتفى فى اعتقاد ثبوت هذه الصفات الثلاث وهى : البصر والسمع والكلام له تعالى على الدليل السمعى من نحو قوله تعالى (وهو السميع البصير) وقوله (وكلم الله موسى تكليما) ونخرج بذلك عن خطة التقليد كما هو مقرر .

(الصفة الثالثة عشرة : الحياة) يجب لله تعالى صفة الحياة وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى . تصحح عقلا اتصافه بصفاته الجليلة : من نحو القدرة والإرادة والعلم . ويستحيل عليه تعالى ضدها وهو الموت والدليل على ذلك أنه لو كان ميتا لما صح اتصافه بصفاته التى قام الدليل على وجوب اتصافه بها : من نحو القدرة والإرادة والعلم ، لكن قام الدليل على وجوب اتصافه بها . فمن المحال أن يكون سبحانه وتعالى ميتا ، وإذا استحال عليه الموت وجب له الحياة وهو المطلوب .

الفصل الثالث

فى بيان أن من صفات الله تعالى ـ التى تقدمت ـ ما يتعلق بالأشياء . ومعنى تعلقها ، وأن منها ما لا يتعلق بشىء

اعلم أن صفات الله تعالى الثلاث عشرة التى تقدم لنا إقامة الدلائل على وجوبها له تعالى ، واستحالة أضدادها ، منها ما لا يتعلق بشىء وهى

مقدمة

تشتمل على أربعة أبحاث

البحث الأول

فى تعريف علم التوحيد ، وثمرته ، وفضله وافتراض تعلمه على كلّ مكلف

اعلم أن علم التوحيد هو : علم يبحث فيه عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية . وثمرته هى : معرفة صفات الله تعالى ، ورسله بالبراهين القطعية ، والفوز بالسعادة الأبدية . وهو أصل العلوم الدينية وأفضلها ، لكونه متعلقا بذات الله تعالى ، وذات رسله عليهم الصلاة والسلام . وشرف العلوم بشرف المعلوم . وقد جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم ، ولكن لما كان الشيخ أبو منصور الماتريدىّ ، والشيخ أبو الحسن الأشعرىّ أشهر من دوّن كتب هذا العلم ، وأقام الأدلة والبراهين على رد ما قاله المخالفون ، شاع أنهما الواضعان له ، ويفترض تعلمه على كل مكلف من ذكر وأنثى ، ولو بأدلة إجمالية . وأما معرفة أدلته التفصيلية فهى فرض كفاية ، إذا قام بها بعض الأمة سقط الطلب عن الباقين ، والصحيح أن من قلد غيره فى العقائد الدينية بأن يعتقدها اعتقادا جازما لا يقبل الشك والتردد يكون إيمانه صحيحا ، ولكنه يكون آثما بترك النظر فى الأدلة إن كان قادرا على ذلك ، وإلا فلا ، وإنما سمى هذا العلم علم التوحيد ، لأن أشهر مباحثه البحث عن توحيد الله تعالى ، وهو أساس الدين .

البحث الثانى

فى بيان حقيقة الإيمان ، وحقيقة الإسلام

اعلم أن الإيمان الذى كلف الله تعالى به عباده ، وجعل جزاءه دخول الجنة ، والنجاة من النار هو : تصديق سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما علم مجيئه به بالضرورة : أى اعتقاد صدقه عليه الصلاة والسلام اعتقادا جازما فيما جاء به عن الله تعالى ، وعلم مجيئه به يقينا مع الإذعان القلبى لذلك ، وذلك مثل الإيمان بالله تعالى وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، وافتراض الصلاة ، وبقية العبادات الإسلامية : من الزكاة ، والصيام ، والحجّ على المستطيع ، وتحريم قتل النفس المعصومة ظلما ، والزنا ، وأمثال ذلك .

والإسلام : هو الخضوع والانقياد باطنا وظاهرا لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلم مجيئه به بالضرورة : أى علم مجيئه به يقينا . فكل من الإيمان والإسلام المنجيين لا ينفك عن الآخر ، فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، لأن المصدق ذلك التصديق للرسول عليه السلام لابد أن يكون خاضعا لما جاء به عليه السلام ، والخاضع هذا الخضوع لابدّ أن يكون مصدقا ذلك التصديق . ثم إن النطق بالشهادتين — وهما : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، قد جعل شرطا لا زما لإجراء الأحكام الدنيوية على المؤمن : من نحو مناكحته ، والصلاة خلفه ، والصلاة عليه ، ودفنه فى مقابر المسلمين . فإذا لم ينطق بهما لعذر كالخرس أو لم يتمكن من النطق بهما بأن مات عقب ما آمن بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما بعد الإيمان بقلبه أيضا . ، فهو مؤمن عند الله تعالى وناج فى الآخرة ، لكن من امتنع عن النطق بهما عنادا بعد أن عرض عليه ذلك ، فهو كافر والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبى الذى

الصفات التسع التى تقدم إثبات وجوبها له تعالى واستحالة اضدادها : وهى أى تلك الصفات الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وقيامه بنفسه والوحدانية والإرادة والقدرة والعلم وإن كان عليها مدار الألوهية ، ووجود إله متصف بها يكفى فى توجيه وجود هذا العالم ويقنع العقل السليم ، لكننا إذا تأملنا بعد ذلك فى شأن الإله سبحانه وفى بديع مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الإتقان والإحكام ، بحيث أنه سبحانه أعطى كل شىء كماله وكل ما يقوم بوجوده ويصلح لشأنه ، نجزم بأنه إذا كانت مصنوعاته فى هذا الكمال فمن المستحيل أن يكون هو سبحانه ناقصا لأننا فى جميع ما نتصوره لا نجد الشىء يوجد مثله فضلا عن أن الناقص يوجد ويبتدع الكامل ، أو أن الكامل يوجد أكمل منه ؛ هذا الإنسان هو أعلم الحيوانات وأقدرها فى الصناعة مهما صنع وابتدع فإنه لا يقرب فى صنعه من الكمال الذى هو قائم فيه فضلا عن أن يصنع مثله أو أكمل منه ، فلا يقدر على صنع نبات فضلا عن صنع حيوان أو إنسان ، بل لو سقطت شعرة من جسده لايقدر على إعادتها كما كانت وما تراه يجرى على يده من ظهور النبات والحيوان فإنما هو بمباشرته الأمور التى جعلها الله تعالى أسبابا عادية لتولد النبات أو الحيوان ، فتراه يضع البذر فى الأرض ويعرّضه للحرارة ويسقيه الماء فينبت منه النبات وهو لا يدرى كيف نبت وحدثت فيه سائر خواصه من اللون والطعم والرائحة وغير ذلك ، وكذلك يضع بيض الطائر فى الحرارة فيتولد منه طائره وهو لايدري كيف تكوّن ذلك الطائر وشق سمعه وبصره وتصور لحمه ودمه وسائر أعضائه ، وفى هذا بيان ظاهر أن الإنسان لم يصنع النبات والحيوان ، وإنما تسبب فى صنعهما مع جهله بكيفية نشأتهما عن أسبابهما ، وإله العالم هو المنفرد بصنعهما جلّ وعزّ . فعلى جميع ما تقدم نجزم بأن هذا الإله الذى أوجد العالم من العدم ونوّع منه الأنواع التى تحار فيها الأفهام وكمل بعضها بالسمع والبصر والكلام يجب

إدراك ومعرفة فلا شك أنه من أحمق الحمقاء وأجهل الجهلاء وإن تستر بتمويهات واهية وخرافات ساقطة ، إذ فطرة العقل السليم تأبى تصديق دعواه الباطلة ، فنحن نجزم بما اعتقدناه من نسبة صنع هذا العالم للإله القادر العليم ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّا كبيرا .

(الصفة العاشرة : السمع) يجب لله تعالى صفة السمع وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بصماخ وأذن تنكشف بها مسموعاته تعالى يستحيل عليه ضده وهو الصمم . والدليل على ذلك أن الصمم نقص والنقص على إله العالم الذى أوجده مكملا ووهب السمع لبعض أنواعه وجعله من أكبر النعم عليهم محال ، وإذا استحال عليه سبحانه الصمم وجب له السمع وهو المطلوب .

(الصفة الحادية عشرة : البصر) يجب لله تعالى صفة البصر وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بمقلة ولاحدقة تنكشف له تعالى بها مبصراته ، يستحيل عليه تعالى ضده وهوالعمى . والدليل على ذلك أن العمى نقص والنقص على الله تعالى الذى أوجد هذا العالم مكملا وزين بعض أنواعه بنعمة البصر محال ، وإذا استحال عليه تعالى العمى وجب له البصر وهو المطلوب .

(الصفة الثانية عشرة ؛ الكلام) يجب لله تعالى صفة الكلام وهى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولاصوت : تدل على الواجبات والمستحيلات والجائزات ما كان منها وما يكون يفهم بها سبحانه ما يريد إفهامه لأحد عباده ، ويستحيل عليه ضده وهو البكم ؛ والدليل على ذلك أن البكم نقص والنقص على الله تعالى إله العالم الذى أوجده وكمل بعض أنواعه بالنطق والكلام محال ، وإذا استحال عليه سبحانه البكم وجب له الكلام وهو المطلوب .

وتوضيح دليل وجوب صفة السمع والبصر والكلام له تعالى واستحالة أضدادها وهى : الصمم والعمى والبكم بنوع بسط أن نقول : إن

يحصل منه ، لأن هذا الامتناع قد جعله الشرع منافيا للإيمان ، وحكم بكفر صاحبه .

البحث الثالث

فى بيان ما اعتبره الشرع منافيا للإيمان ، ومبطلا له والعياذ بالله تعالى

اعلم أن الشرع الشريف نهى وحذّر عن الأمور المنافية للإيمان وحكم بكفر من يرتكبها وإن كان مصدقا بقلبه ، ومنقادا لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ وذلك مثل السجود للصنم اختيارا ، أو الاستهانة بما عظمه الدين : كالقرآن الشريف ، وحديث الرسول المنيف ، والشريعة المطهرة ، ورسل الله الكرام وأسمائه العظيمة ، وصفاته الكريمة ، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية ، كالصلاة ، والحج ، أو الشتم لواحد مما ذكر ، أو التلفظ بكلمة الكفر ، أو نحو ذلك ، فإن هذا وأمثاله ينافى الإيمان ، ويحكم على مرتكبه بالكفر والخذلان ، وكذلك إذا كذب الإنسان شيئا من النصوص الشرعية الثابت ورودها عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقينا : كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول المتواترة عنه عليه السلام أى التى نقلها الجماعة الكثيرون الذين يؤمن توافقهم على الكذب ، أو استحل حراما ثبتت حرمته فى الشرع قطعا ، وظهرت حكمة قبحه : كقتل النفس المعصومة والزنا ، وأمثال ذلك ، فان ذلك الإنسان يكون قد أخلّ بالتصديق الإيمانىّ ، والانقياد الإسلامى ، وأتى بما يبطلهما ، ويحكم عليه شرعا بالكفر ، وعلى كل من كفر — والعياذ بالله تعالى — أن يبادر لتجديد إيمانه وإسلامه ويتوب مما ارتكبه ، وإلا فيستحق القتل فى الدنيا ، والخلود فى النار فى الآخرة ، نعوذ بالله تعالى ، وبه نعتصم .

البحث الرابع

فى أحكام العقل الثلاثة ، وهى : الوجوب ، والإستحالة ، والجواز

اعلم أنه لما كان الإيمان بالله تعالى على ما سيأتى هو : معرفة ما يجب لله تعالى ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز فى حقه سبحانه ، وكذلك الإيمان ببقية ما يجب الإيمان به : من نحو الرسل ، والملائكة لزم أن نبين معنى الوجوب ، والاستحالة والجواز العقليات ، التى انحصرت بها أحكام العقل ، وليس لها حكم سواها : فنقول :

أما الوجوب العقلى فهو : عدم قبول الانتفاء ، والشىء الذى لايقبل الانتفاء يقال له الواجب العقلىّ ، . مثاله : كون الواحد نصف الاثنين ، ووجود خالق العالم ، فيكون الواحد نصف الا ثنين واجب عقلى ، ووجود خالق العالم واجب عقلى لا يقبلان الانتفاء والعدم . لكن الأول واجب عقلى بديهى لا يحتاج إلى دليل ، والثانى واجب عقلى نظرى يحتاج إلى دليل .

وأما الاستحالة ، فهى : عدم قبول الثبوت ، والشىء الذى لا يقبل الثبوت يقال له المستحيل العقلى ويسمى محالا أيضا . مثاله : كون الثلاثة نصف العشرة ، ووجود شريك لخالق العالم . فكون الثلاثة نصف العشرة مستحيل عقلى ، ووجود شريك لخالق العالم مستحيل ومحال عقلى ، لكن الأول مستحيل عقلىّ بديهى لايحتاج إلى دليل ، والثانى مستحيل عقلى نظرى يحتاج إلى دليل .

وأما الجواز ، فهو : قبول الثبوت والانتفاء ، والشىء الذى يقبل الثبوت والانتفاء يقال له الجائز العقلى ، مثاله سفر زيد ، أو قلب الحجر ذهبا بقدرة الله تعالى ، فسفر زيد جائز عقلىّ ، وقلب الحجر ذهبا بقدرة الله تعالى جائز عقلى ، لكن الأول جائز عقلى بديهى لا يحتاج إلى دليل

والمعدن وما حوته من الأنواع والموافقات ، والاختلافات ، إلى غير ذلك من العجب العجاب ؟ ومن المستحيل عند العقل السليم أن الذى أوجد هذا العالم بهذا الإتقان والإحكام ودقيق الصنعة وعجيب الوضع يكون جاهلا غير عالم ؛ فثبت بهذا أن الله تعالى إله العالم الذى أوجده بهذا الاتقان يجب له العلم ، ويستحيل عليه ضده وهو الجهل وهذا هو المطوب .

وتوضيح دليل وجوب القدرة والعلم لله تعالى بنوع من البسط أن نقول : إن من نظر مثلا ساعة من الساعات التى يستعلم بها الوقت المحتوية على عدة آلا ت هندسية متقنة محكمة حتى وفت بالغرض وضبطت الأوقات حتى الثوانى منها لا شك عنده ولاريب فى أن لها صانعا صنعها وأن هذا الصانع له قدرة كافية لصنعها وعلم كاف لإتقانها وإحكامها حتى تفى بالغرض المقصود منها ؛ ومن يصدق بأنها حصلت وتكونت بنفسها بطريق الصدفة بدون صانع صنعها وأتقنها أو أن صانعها عاجز مقطوع اليدين والرجلين جاهل بفنون الهندسة والصنائع ، بل هو خامل الفكر جاهل بكل علم ، ومع ذلك صنعها بذلك الإتقان والإحكام فيعدّ هذا المصدّق من الحمقاء الذين لا يفرقون بين الأرض والسماء ؛ فكذلك إذا نظرنا فى هذا العالم مع ما احتوى عليه من عجائب كواكبه وغرائب حيوانه ونباته ومعدنه التى ملأت علومها الكتب وطفحت بها الصحف ولم نزل قاصرين عن الإحاطة بكل ما اشتملت عليه من العظمة والغرابة ؛ كما يعلم من الاطلاع على كتب الفنون المتكفلة بالكلام على هذه العوالم نجزم قطعا مع غاية اطمئنان قلوبنا بأن هذا العالم بجميع مشكلاته لابد له من صانع صنعه وأبرزه بهذا الإتقان والإحكام ونوّع أنواعه وصنف أصنافه وميز أشخاصه ؛ وهو قادر أتم القدرة وعالم أكمل العلم يستحيل عليه العجز والجهل ؛ ومن نسب ذلك الصنع العظيم العجيب إلى حدوثه بنفسه صدفة واتفاقا ، أو إلى شىء آخر عاجز جاهل خال عن كل